ثائر من المغرب يعلم " شاو " فن القتال

قبل مدة زار وفد فلسطيني الصين الشعبية ، و أتيحت له فرصة الالتقاء مع الرئيس "ماوتسي تونغ" ، فأحاط أعضاء الوفد بالزعيم الكبير ، وكلهم في شوق للاستماع اليه يروي تجاربه التاريخية في حرب العصابات التي خاضها ضد قوات "شيانك كاي شيك" و الجيوش اليابانية الغازية . وكان أعضاء الوفد العربي على إدراك كامل بأنهم الآن يستمعون الى الحجة العليا في المقاومة الشعبية والتحرير ضد الاستعمار ، وهو نمط القتال الذي كانت طليعة الشعب الفلسطيني آنذاك تتأهب لخوض غماره ضد الاحتلال الصهيوني ولكن فوجئ الوفد العربي عندما قال الزعيم الصيني : أتعرفون اني تعلمت بعض ما أعرفه عن حروب التحرير من ثائر عربي كبير ؟ هل نسيتم أيها العرب بطلكم المغربي الذي سبقت مقاومته للتسلط الأجنبي ثورة الشعب الصيني المظفرة ضد الإستعمار .

ثائر عربي من المغرب قاد بلاد الريف في انتفاضة مسلحة ضد الاستعمار في مطلع العشرينات من هذا القرن ، ثم تحالف الاسبان و الفرنسيون ضده ، فقضوا على ثورته ونفوه الى جزيرة ثانية ، بعد ذلك التجأ الى مصر وتوفي في القاهرة قبل سنوات . هذا يكاد كل ما يعرفه القارئ العربي عن البطل الذي كاد يهزم الفرنسيين حتى قبل ولادة ، الجنرال الفييتنامي " نغوين غياب " الذي هزمهم بعد ذلك في معركة دين بين فو الشهيرة عام ١٩٥٣ .

كانت الدول الكبرئ تتخذ سكاكينها بانتظار الوليمة الشهية في المغرب..... ومع قدوم ربيع عام ١٩٢١ كان الاسبان يعدون العدة لالتهام بلاد الريف ذات الاراضي الوعرة و المضائق الجبلية المجهولة التي لم تكن قد رسمت بعد لها الخرائط ..... وفجأة برز في المغرب بطل اسمه عبد الكريم الخطابي ليلعب دوره التاريخي في مواجهة الخطر المحدق في بلاده .... فكانت حربه مع الاستعمار مثالا حيا لحروب التحرير . وبمناسبة مرور خمسين عاما على ثورته، وفي وقت تثار من جديد قضية الخلاف على الصحراء بين المغرب واسبانيا ، تمسح " الأسبوع العربي " الغبار المتراكم عن تاريخ الخطابي المنسي، لتعود الشمس فتشرق من المغرب .

من هو الخطابي ؟

يتفق أكثر المؤرخين على ان سيدي محمد عبد الكريم الخطابي ولد في مدينة اغادير من اعمال الريف عام ١٨٨٢ ، وكان الابن الاكبر لقاض يصل نسبه الى الرسول العربي و الى عمر بن الخطاب على وجه التحديد ، مما يفسر لقب الاسرة الخطابي . ولكن اذا كان اجداد الخطابي هم من العرب الذين هاجروا الى المغرب منذ قرون فان بلاد الريف تسكنها قبائل البربر التي تتخذ لغة مغايرة تماما" للعربية .

بلاد الريف تواجه المطامع الاسبانية

الزمان : تشرين الاول سنة ١٩٢٠

المكان : احدى قرى الريف .

الاشخاص : مجلس قضاة بلاد الريف .

يقف رجل مربوع القامة ، ممتلئها ، في الثامنة و الثلاثين من العمر ، فيوجه حديثه الى المجلس الذي ضم كبار رجال الاقليم ، وهو يحدق بعينيه النافذتين في وجه كل واحد منهم :

_ " ان الدول الكبرى تتخذ سكاكينها ، وغدا يأتي دورنا . افلا يجب ان نتأهب لمواجهة الخطر المحدق بنا و الذي يهدد اقليمنا باكمله ؟؟ اليس هذا هو انسب الاوقات لدفن الخلافات وتوحيد الكلمة ولمِّ الشمل ؟ "

المتحدث هو محمد عبد الكريم الخطابي الذي قضى سبعة اشهر يطوف في ارجاء الاقليم حاثا قضاته وكبار رجاله على توحيد صفوفهم لدرء الخطر الوشيك. ان بلاده تتمتع بالاستقلال الذاتي منذ اكثر من الفي عام ، فلا الرومان ولا بقية الفاتحين بعدهم كانت لهم رغبة جدية في السيطرة على هذه الاراضي الوعرة ذات المسالك الملتوية و المضائق الجبلية المجهولة التي لم ترسم لها الخرائط بعد . وهكذا فان بلاد الريف ظلت تعيش في عزلة عن العالم الخارجي ، يحمي اهلها من مطامع الغزاة موقعهم الجغرافي المنيع . ومع ذلك فان رابطة الدين القوية كانت تربطهم ببقية اقاليم المغرب ، كما كانوا يدينون بالولاء للسلطان كأعلى سلطة روحية في البلاد .

وكانت كل قبيلة من قبائل الريف تتخذ من منطقتها حصنا منيعا تتمتع داخله بالاستقلال اما اعلى سلطة فيها فهي سلطة القاضي ، فهو رجل الدين و الشرع و القانون وهو اكثر ابناء القبيلة ثقافة ، كما انه مرجعها في جميع شؤونها الدينية و الدنيوية .

واستمر الخطابي يقول لابناء قومه في الاجتماع : " لقد حان الوقت لان نتناسى خلافتنا فالاسبان ينتظرون حلول فصل الربيع وذوبان الثلوج عبر المسالك الجبلية للقيام بهجومهم العام المرتقب لاحتلال بلادنا . معنى ذلك ان لدينا ستة اشهر فقط للاستعداد ، فينبغي الا نضيع وقتنا بالجدل العقيم " .

ولكن وقت المؤتمر يضيع فعلا في الجدل العقيم ، و ينتهي الاجتماع بالفشل ، اذ ليس من السهل على القبائل المتنافرة ان تتخلى عن شكوكها القديمة واحقادها الموروثة وعادة الثأر المتأصلة في نفوس ابنائها . ويعود كل قاض الى بلدته وهو مصمم على مقاتلة الاسبان زودا عن دياره ، ولكن على طريقته هو وبالاعتماد على قبيلته وحدها ، اي دون تحالف او تنسيق مع القبائل الاخرى .

ويعود الخطابي الى داره ايضا في اغادير المطلة على شرم الحسيمة الذي كان الاسبان قد بنوا على جزيرة فيه حصنا قويا وينتظر انتهاء الشتاء الممطر البارد .....وغزو الاسبان

الاسبان ينتظرون الربيع

وفي ميناء مليلة الذي يبعد سبعين ميلا عن اغادير ، ينتظر الجنرال الاسباني بنفاذ صبر الربيع ليقود جيشه ضد الريف . لقد سقطت مليلة الواقعة في الطرف الشرقي من بلاد الريف بيد الاسبان منذ خمس قرون ، وطوال هذه القرون ظل الطمع يحدو بهم لاحتلال بلاد الريف كلها . واخيرا ها هو الجنرال فيرناندیز سيلفستري يتطلع من شرفة مقر قيادته الى الجبال البعيدة ينتظر ذوبان ثلوجها ليباشر الزحف

انه يطمح الى اقتفاء اثر الفاتحين الاسبان (الكونكستاد ورس) في القرن السادس عشر ، امثال هيرناند و كورتيز الذي غزا المكسيك ، ومعاصره فرانسيسكو بيزارو الذي حطم امبراطورية الانكا الهندية في بيرو . وبلاده بحاجة ماسة الى انتصار عسكري لامع ، والى امبراطورية جديدة تعوض عن الامبراطورية الشاسعة التي فقدتها في القارة الاميركية اثر اندلاع الثورات التحررية ضد الاستعمار الاسباني هناك . ولما كانت بلاد الريف قريبة جدا من اسبانيا وبمثابة الساحة الخلفية للدار ، فلا بد انها ستكون لقمة سائغة اذن في حلق

اسبانيا ، ودواء شافيا للعزة القومية التي جرحتها هزيمة السلاح الاسباني على يد الولايات المتحدة في الحرب التي نشبت بسبب كوبا ، آخر مستعمرة في القارة الجديدة .

ويعلم الجنرال سيلفستري ان الحكومة الاسبانية لا تؤيد في الوقت الحاضر الهجوم على بلاد الريف ، كما يتذكر ان رئيسه الجنرال داماسكو بيرنغوير ، المندوب السامي في المغرب الاسبانية ، كان قد حذره من القيام بهذه العملية المتهورة ، بيد انه يقرر الخروج عن الاوامر ، وشن حملة خاطفة من الشرق تستهدف اخضاع المنطقة كلها في ضربة واحدة ، وتنتهي بالتقاء قواته بقوات الجنرال بيرنغوير غربي البلاد .

ويحتفظ سيلفستري بخطته لنفسه ، ولا يطلع عليها احد الا مليكه ، الفونسو الثالث عشر وكان هذا شابا يتحرق لان تحصل اسبانيا في عهده على امبراطورية جديدة من اجل ان يدخل اسمه التاريخ محاطا بوهج العظمة . ولذا فانه يشجع قائده على المضي قدما في تنفيذ خطته رغم معارضة الوزارة .

الامبراطورية المغربية تحتضر

وكانت الامبراطورية المغربية قد بدات بالانهيار عام ١٨٩٤ اثناء حكم السلطان عبد العزيز . فقد انفتح المجال واسعا امام التدخل الاجنبي الممهد للاستعمار . فكما اغرقت الدول الاوروبية مصر الخديوي اسماعيل بالديوان كخطوة اولى على طريق الاحتلال ، فان فرنسا لعبت الدور نفسه بالنسبة الى مغرب السلطان عبد العزيز ، لاسيما وان تونس و الجزائر كانتا قد سقطتا قبل المغرب في براثن الاستعمار . وفي البداية وقفت بريطانيا بالمرصاد لغريمتها التاريخية ، فالتنازع على الاسلاب كان شديدا بين الدول الاستعمارية بيد ان الظروف الدولية ساعدت فرنسا في نهاية المطاف على افتراس ضحيتها ، وذلك اثر ظهور المانيا القيصرية في الافق الاوروبي كقوة بحرية كبرى باتت تهدد سيادة بريطانيا التاريخية على البحار ، مما اخذ يزعزع ميزان القوى في القارة الاوروبية ، وهو التوازن الذي حرصت بريطانيا دائما على الاحتفاظ به لمصلحتها . وهكذا اضطر جون بول للاتفاق مع ماريان على ان يطلق يدها في المغرب لقاء تعهدها بان تترك له حرية التصرف في مصر . كما اشترطت بريطانيا على فرنسا عدم احتلال جزر الساحل المغربي الشمالي الذي يتاخم مضيق جبل طارق العائد لها .

وتم الاتفاق على اقتسام الامبراطورية المغربية عام ١٩٠٤ فبعثت فرنسا مستشاريها الى سلطان المغرب " لمساعدته على تحقيق الاصلاحات العصرية

اللازمة في بلاده ، ثم سلفته مبالغ كبيرة وشجعته على انفاقها على مشاريع غير مفيدة . وكانت النتيجة كما توقعت فرنسا تماما ، فقد قتل مستشاروها على يد الوطنيين ، وعجز السلطان عن تسديد الديون ، فتدخلت " لاعادة النظام والاستقرار من اجل حماية السلطان ، واعلنت الحماية عام ١٩١٢ فاحتل الجيش الفرنسي البلاد ماعدا طنجة التي دولت ، وماعدا المنطقة الشرقية التي" اعيدت " لاسبانيا . ورسم المستعمرون خط الحدود الجديد دون استشارة السكان طبعا او ادخال رغباتهم في الاعتبار .

بلاد الريف ..... تيبت اخرى

تقع بلاد الريف في شمالي المغرب وتمتد مسافة ١٢٠ميلا من الشرق الى الغرب و ٥٣ ميلا من الشمال الى الجنوب . وهي بلاد جبلية وعرة ترتفع جبالها الى سبعة آلاف قدم ، وكان اول من أنشأ الطرق المعبدة فيها هو الخطابي بعد ان اصبح اميرا على البلاد .

وكان الريفي يؤمن بالفردية المطلقة مادامت لا تتجاوز العرف المتبع ، فهو مثل الجاهلي في طباعه . فما ان يصل الصبي الى سن الرجولة حتى يهرع الى اقرب مخزن عسكري اسباني ليبتاع لنفسه بندقية ، دافعا في سبيل ذلك كل ما يملكه من مال . فالريفي يقتر على نفسه واهله من اجل اقتناء السلاح . ولما كان افقر من ان يتمكن من شراء كمية كبيرة من الذخيرة ، فالضرورة الماسة تجبره على ان يبذل قصارى جهده ليصبح هدافا ممتازا حتى يوفر خراطيشه القليلة .

وبالرغم من حياة العنف التي كان الريفي يحياها في مجتمعه القبلي البدائي فهو طيب الجوهر ، شهم ، شجاع ، متزن في سلوكه ، مجد في عمله ، يعتمد على نفسه فقط .

ويختلف عن العربي في انه لا يتباهى بنفسه ولا يتبجح . وهو ايضا تقي ورع وشديد الغيرة ، على دينه . وكانت تسود مجتمعه ديمقراطية المساواة التي تصل الى حد الفوضى لانها تفتقر الى الزعامة المسؤولة ، وهي الزعامة التي امنها الخطابي وشقيقه فيما بعد ، عندما حققا وحدة الاقليم لاول مرة في تاريخه .

اسبانيا تبحث عن مستعمرات جديدة

كان الاسبان قد احتلوا مليلة على ساحل المغرب المطل على البحر المتوسط عام ١٤٩٦ بعد طردهم العرب من الاندلس . لكن انشغالهم بتأسيس المستعمرات عبر المحيط الاطلسي حال دون توسيع موطئ قدمهم على الساحل المغربي ليشمل احتلال البلاد في الداخل . وعندما انزلقت امبراطوريتهم الهائلة

من بين اصابعهم ، وفقدوا آخر مستعمراتهم (كوبا و الفليبين) في حروب كشفت عن الفساد المذهل في الادارة الاسبانية (كان الجندي الاسباني يحارب باسلحة فاسدة وذخيرة مملوءة بنشارة الخشب) ، اتجهت انظارهم صوب الغرب .

واشاع كبار الضباط الروايات الخيالية عن المعادن الثمينة الكامنة في ارض الريف فسال لعاب الرأسماليين في اسبانيا وفرك المتعاقدون على تموين الجيش ايديهم ، فها قد سنحت الفرصة لتحقيق المكاسب المالية الكبرى عن طريق العسكر ، فهل افضل من الحرب وسيلة لملء الجيوب ؟؟

اما رجل الشارع الاسباني فلم يتحمس لفكرة الغزو ، فقد كان اميا وفقيرا ويعاني من المرض ، ولا يحلم بالمجد العسكري بقدر ما يحلم بلقمة العيش الصعبة المنال في ظل النظام الاقطاعي الذي يسود وطنه . ولكن بالرغم من استنكار اليساريين لخطط حكومتهم فان المؤسسة الرأسمالية _العسكرية الاسبانية سارت قدما في سبيل تحقيق حلمها ، واستمرت تذكر الشعب " باعتداءات " المغربيين على الجيش الاسباني ، مطالبة معاقبتهم بشدة . واستغلت اسبانيا دخول فرنسا البلاد المغرب ، فاتفقت معها على اقتسام البلاد وفعلا زحفت الى تطوان ، وهي اهم مدينة في شمال المغرب ، فاقامت فيها مركز الحماية .

الخطابي يتأهب لصدِّ العدوان

وفي الوقت الذي كانت فيه اسبانيا ترسم الخطط لاحتلال الجزء الشمالي من المغرب كان محمد الخطابي ينشأ النشأة التقليدية لكل ريفي من عائلة ميسورة الحال. فهو ينتمي الى قبيلة بني ورياغل ، اقوى قبائل الريف ، ومن اسرة يتوارث ابناؤها منصب القضاء في اغادير . وقد ارسله ابوه الى تطوان ليدرس الشرع الاسلامي واللغة العربية في جامعتها التاريخية ، ثم ذهب بعد ذلك الى فاس ليدرس الشرع في جامعتها . واشتغل الخطابي في التعليم ، ثم اصبح محررا للصفحة العربية في الجريدة الاسبانية لمدينة مليلة . وبعد ذلك عين سكرتيرا في مكتب شؤون الريف التابع للحكومة الاسبانية وفي عام ١٩١٣ رقي الى منصب مستشار في المحكمة الجنائية ، وبعد عامين من ذلك التاريخ اصبح القاضي المسؤول عن القضايا الجنائية و المدنية . وحاول الاسبان استمالته اليهم بعد ان تبينوا قوة شخصيته وذكائه ، الا ان الخطابي تمكن بحكم منصبه من الاتصال بكبار موظفين الاسبان ، واتاح له ذلك الاطلاع على الوثائق الرسمية فتيقن من فساد الادارة الاسبانية ومن تصميم الاسبان على استغلال وطنه شر استغلال .

ثم حدث في هذه الآونة ان قابل الجنرال سيلفستري ، فدار بين الاثنين نقاش حاد جارح انتهى بالقاء القبض على الخطابي وسجنه . وفي ليلة من عام ١٩١٦

حاول الهرب من السجن بعد ان هرب اصدقاؤه حبلا الى زنزانته ليهبط بواسطته من النافذة ولكن شاءت الظروف ان ينعقد الحبل بين القضبان ، فسقط على ارتفاع بضعة امتار وكسر ساقه . فعثر عليه حراسه واعادوه الى السجن ، وظل الى نهاية حياته يسير بعرج بسيط من جراء الحادث .

ثم افرج عنه ، فتولى منصب قاضي قضاة في المحكمة ، اما شقيقه محامد فبعثه والدهما الى مدريد ليتخصص في هندسة المناجم . ولما مات الاب خلفه ابنه الاكبر محمد في منصبه كقاض في اغادير ، مسقط رأسه وكانت الحرب العالمية الاولى قد انتهت . فاصبح واضحا كل الوضوح ان اسبانيا ستحاول الآن بسط نفوذها المباشر على بلاد الريف كلها . وعلم الخطابي ان عدوه السابق الجنرال سيلفستري ، سيكون الرجل الذي سيقود الحملة ضد بني قومه . وكان هذا القائد المتهود قد استلم من مليكه الذي لا يقل عنه طيشا رسالة كتب فيها الاخير يقول : اعمل ما اقوله لك ، ولا تهتم بوزير الحربية ، فهو مغفل .

ولم يكن سيلفستري بحاجة الى تشجيع ، فقد كان يتحرق شوقا الى الغزو ، فهو يحتقر رجال الريف وينعتهم بجنود التنورة (لانهم يرتدون الجلاب المغربي الطويل) ولذا فقد رسم خطة الغزو كما يلي :

الزحف الى الموت

يقوم هو على رأس جيشه ، المكون من عشرين الف اسباني واربعة آلاف مجند مغربي ، بالزحف الى مليلة غربا الى موطن قبيلة بني ورياغل ، قبيلة الخطابي ، فيسحق روح التمرد التي اوقدها الخطابي هناك ، ثم يأمر قائد حامية الجزيرة المطلة على شرم الحسيمة بانزال قواته ، وضرب بلاد الريف في اغادير ، مدينة الخطابي وقلب الاقليم كله .

امام الجنرال سيلفستري طريقان يؤديان الى اغادير ، اولهما طويل يلتف حول الجبال ويصل الى اغادير من الجنوب ، اما الطريق الثاني فيمر عبر المضائق الجبلية الوعرة ويخترق المرتفعات . الطريق الاول طويل ولكنه مأمون نسبيا اما الثاني فقصير ولكنه شديد الخطر ولا يعرفه الاسبان معرفة جيدة .

وطبعا اختار سيلفستري الطريق الثاني لانه في عجلة من امره لقطاف ثمرات النصر وتكليل جبينه باكليل الغار ، فيصدر امره بالزحف ، ويتقدم الطابور الطويل عبر الهضبة المغبرة ، فيرى الاسبان امامهم جبال الريف التي كانت دائما بمثابة سور عظيم يحول بينهم وبين الاقليم . وها هم الآن بعد انتظار دام قرونا يزحفون الى الامام ، مثل قادة الاسبان القدامى الذين فتحوا العالم الجديد

ونهبوا خيراته بقوة السلاح . وها هو الآن الجنرال سيلفستر المقاتل الذي يحمل على اثر ستين جرحا ، يزحف على رأس جيشه فالحملة حملته هو و التكليف اتاه من الملك الفونسو شخصيا ، ولذا فالنصر سيكون نصره دون سواه ، ولن يشاركه فيه احد ، ولا حتى غريمه ورئيسه الجنرال بيرنغوير ، المندوب السامي الاسباني في المغرب ، هل يا ترى سيحصل على لقب النبالة الذي طالما تاق اليه ؟؟

ويزحف الطابور من مليلة تحت الشمس الافريقية المحرقة ، ويرتفع الغبار من تحت حدوات الخيل ، بينما يهب نسيم عذب منعش من الجبال ، فيسكر له سيلفستري ، وكان في الهواء مذاق البورتو ..... نبيذ النصر .

وتعزف الابواق الاناشيد الحماسية ، وترفرف الرايات ، ويبدو للناظر من جديد انه يشاهد طابورا حديديا من الرجال الاشداء . اما من قريب فتبدو الحقيقة دون بريق رومانتيكي .... تبدو مخجلة ومؤسفة في آن واحد . فأردية الجنود ممزقة تعلوها بقع الاوساخ اما اسلحتهم فعتيقة و رديئة و صدئة .

ان اكثر الجنود من الفلاحين الشبان ، اي انهم اميون ونصف جياع . اما تفسير وجودهم في الجيش فيرجع الى عجزهم عن دفع البدل للتخلص من الخدمة العسكرية الكريهة . وها هم الآن في طريقهم الى الموت بسبب طموح جنرال متهور و طيش ملك شاب وطمع رجال المال . ان عدد كبير من الجنود لم يتعلم بعد كيف يطلق الرصاص من بندقيته ، بل ان عددا كبيرا من البنادق لا يمكن ان تطلق رصاصة واحدة لانها لم تعد صالحة للاستعمال . وحتى ان كانت صالحة للاستعمال ، فذلك لن يغير الموقف كثيرا لان نصف الخراطيش مملوءة بالرمال ونشارة الخشب .

ومع ان في الجيش الاسباني عددا من الضباط يفوق عدد الضباط في جيش اخر يماثله حجما ، الا ان الكثير من هؤلاء اختاروا التخلف في مليلة لنهب المخازن العسكرية و قضاء الوقت الطيب في حانات تلك المدينة واماكن اللهو فيها . فالخدمة العسكرية بالنسبة للضباط الاسباني يومذاك كانت اسهل الطرق للاثراء السريع فهو المسؤول عن اعاشة جنوده وهو الذي يتركهم جياعا ليبيع غذاءهم في السوق الا ان الانصاف يقتضي القول بان ليس جميع الضباط الاسبان كان على هذا المستوى

ويبدأ الان الطابور بالمرور بين المضائق الجبلية التي لو تمركز فيها حفنة من المقاتلين لاوقفوا الزحف ، الا ان الطريق مفتوح و التقدم مستمر دون عقبات ولا يهتم الجنرال سيلفستري بالتفاصيل ، بل يتركها لمرؤوسيه . ولما كانت

التعليمات العسكرية الاساسية تحتم على كل الجيوش جيش زاحف ان يحمي مؤخرته بواسطة اقامة نقاط محصنة في الطريق يمكنه الافادة منها في حالة التقهقر ولاجل ضمان وصول المدادات اليه ، فان ضباط اركان سيلفستري يقومون بهذه المهمة ، ولكن ليس على الوجه الصحيح ، فالنقاط التي يقيمونها قليلة ومتباعدة ، مما يجعل الاتصال فيما بينها صعبا . اما افدح غلطة يقع فيها سيلفستري فهي عدم تجريده للقبيلة التي يمر باراضيها من السلاح .

ولكن الزحف يستمر ، الى ان يتفرع ثلاثة فروع ، يتجه اولها الى سيدي ادريس على الساحل ، بينما يخترق الفرعان الآخران مناطق جبلية . ولا يعترض الاسبان طريقهم احد . فانهم كانوا قد رشوا رؤساء القبائل قي تلك المنطقة . ولكن بين هذه القبائل قبيلة كان الخطابي قد انتزع منها الخطابي وعدا بان تحذره لدى اقتراب الجيش الاسباني ، وذلك بايقاد النار على قمم الجبال ليراها من بعيد.

وتفي القبيلة بوعدها ، ويصل خبر الزحف الى اغادير ، فيبعث الخطابي برسالة الى رؤساء قبيلة بني ورياغل يطلب منهم الامدادات . الا أن رد فعلهم هزيل وغير مشجع ، اذ لايستجيب لدعوته الى السلاح الا ١٢٥ رجلا فقط . الا ان اول نظرة يلقيها عليهم الخطابي كانت كافية لتعلمه بانهم رجال جبليون اشداء تعودوا على التعرض للمشاق . وكل منهم بمثابة وحدة عسكرية قائمة بذاتها ، اذ يحمل كل رجل سلاحه وذخيرته ومؤونته من الماء و الغذاء معه ، مما يجعله في غنى عن التمون في الطريق .

كما ان كل فرد في هذه الجماعة الصغيرة هو هداف ممتاز ومزود ببندقية ما وزر كان قد ابتاعها من المخازن الاسبانية العسكرية . بيد ان الذخيرة شحيحة وليس لدى كل مقاتل اكثر من عشر خراطيش . ولكن الخطابي كان قد اختاط للامر و اشترى من ماله الخاص ١٦٠٠ خرطوشة من ضابط اسباني ، وقد كلفته هذه الصفقة مبلغا طائلا الا انه لم يندم عليها . ويتفحص الخطابي جيشه الصغير ثم يقول للرجال انه لا يطلب منهم الا شيئاً واحداً : القتال ما دام فيهم رمق . ثم يعقد الجميع اجتماعا حسب عرف اهل الريف لرسم خطة الهجوم .

في زاوية مغمورة من العالم يرتفع الستار على احداث مذهلة ، فان قوة صغيرة من الوطنيين المسلحين بالاسلحة الخفيفة التي تفتقر الى الذخيرة الكافية ، تتصدى لجيش اوروبي كبيرا ارسلته دولة كانت لبضع سنوات خلت ، تمتلك ثاني اعظم امبراطورية في العالم بعد الامبراطورية البريطانية . وهكذا يشهد العام ١٩٢١ سلسلة من الانتصارات المغربية الباهرة التي تزيل ظل الاحتلال الاسباني عن بلاد الريف ، وتوطد استقلال هذا الاقليم تحت زعامة الخطابي .

في ايار ١٩٢١ كان حوالي الف جندي من الجيش الاسباني يعسكرون في وادي انوال وقد اخذ الاسبان يشيدون الحصون على القمم المحيطة بالوادي ، واهمها الحصن الذي اقامه الجنرال سيلفستري على سفح جبل عبران ووضع فيه خمسمائة جندي . وتحتل نقطة عبران موقعا استراتيجيا لانها تطل على الوادي و الطريق المؤدي غربا ، وبامكان من يحتلها ان يسيطر على المنطقة اذا كان مزودا بالمدافع . ولكن سيلفستري لم يهتم بتحصين النقاط الاخرى لانه كان يعتزم الوصول او مواصلة الزحف ولم يتوقع مقاومة حامية لجيشه اذ كيف يمكن لجنود التنانير (كما كان يسمى باحتقار رجال الريف) ان يقاوموا جيشا اوروبيا عصريا مزودا بالاسلحة الثقيلة . بل كيف يمكن لقاضي بلدة صغيرة ان يتصدى لجيش اسبانيا و يهدد جبروتها ؟؟

اما الخطابي ، فكان قد رسم خطة الهجوم على حصن عبران فقسم قوته الصغيرة الى قسمين او بالاحرى الى حلقتين ، الحلقة الاولى تبدأ في تسلق الجبل من جميع نواحيه بينما تصوب الحلقة الثانية فوهات بنادقها صوب سور الحصن لتغطية زحف الجماعة الاولى التي ما ان تصل الى نقطة متفق عليها ، حتى تبدأ الجماعة الثانية بالتسلق بدورها بينما تغطيها الفئة الاولى ، وهكذا دواليك الى ان تصل القوة باكملها الى موقع الحصن على سفح الجبل .

وفي نفس الوقت ، قامت وحدة ثالثة بقيادة محامد الخطابي شقيق محمد بالتسلق من جهة اخرى كمناورة لصرف الانتباه فيما لو شعر الاسبان بالخطر المحدق بهم ، فعنصر المباغتة التامة بالغ الاهمية وعليه يرتكز نجاح الخطة . ويقبع الجميع في مخابئهم طوال الليل القارص البرد في انتظار الفجر ، ويهمس الخطابي في اذن احد رفاقه بندقيتي بيدي و رجلي على حافة القبر ، وهذا تعبير استعمله اهل الريف ومعناه ان قائله قد قرر القتال الى آخر رمق فيه . و عندما ينبلج الفجر ، يتقدم بعض جماعة محامد نحو بوابة الحصن بجرأة ، متظاهرة انها وحدة من المجندين المغربيين في الجيش الاسباني قادمة لتعزز حامية الحصن ، بينما يختبئ البعض الاخر دون ان يصدر عنه صوت . نحن "اسبانيول اسبانيول ، افتحوا " ولما كان محامد قد درس في اسبانيا فهو يتقن لغتها ، فان الحارس يطمئن اليه ويفتح الباب ، وذلك لان الاسبان قد قضوا ليلة هادئة طيبة لم يشعروا اثناءها بتسلق الريفيين سفح الجبل .

ولكن ما ان ينفتح الباب حتى ينطلق الريفيون الى الداخل كالعاصفة وهم يهتفون : لا اله الا الله ... والله اكبر ، فيسقط اول ما يسقط الحراس عند الباب ، بينما يثب الريفيون من فوق السور الى صحن الحصن ، فيهب الاسبان من نومهم ليجدوا العدو و كانه كابوس رهيب يحيط بهم من كل جانب ، ويظهر ضابط

شاهر مسدسه ، الا ان ريفيا يعاجله بضربة ترميه ارضا ثم يهشم رأسه بكعب بندقيته .

وتدب الفوضى ، فوضى القتال في المكان ، فقد اقتحم الحصن ١٢٥ ريفيا ، يحمل كل منهم بندقية بيد ، وخنجره باليد الاخرى ليوفر ذخيرته القليلة ، وسرعان ما تختلط هتافات الله اكبر بصراخ الجرحى وانين المحتضرين وطلقات الرشاش الذي هب الاسبان بعد فوات الاوان ليحاولوا حصد المهاجمين بنيرانه ولكن الريفيين ينزعونه من ايدي الاسبان ويصوبونه اليهم ، فتتساقط الجثث مثل الذباب . وهنا يظهر الكابتن (النقيب) سالانزريريتا قائد الحامية الذي اشتهر بطوله الخارق ، فيتقدم اليه ريفي اسمه محمد المصارع الذي اشتهر بقوته البدنية الهائلة ، فيشتبك الاثنين في عراك رهيب تحكى قصته حتى اليوم في بلاد الريف. ويمسك سالانزريريتا بيد محمد التي تحمل الخنجر ، بينما يطبق محمد بكفه على يد الكابتن التي تشهر المسدس ثم يقع الاثنان على السور ويتدحرجان الى ان يقتربا من حافته ، فينزلقا من فوقها الى الصخور تحتهما وهما مازالا في عناق الموت الرهيب .

وتستمر المعركة في الحصن ، الا انها في الحقيقة مجزرة ، فاهل الريف من احسن مقاتلي العالم في النزال وجها لوجه ، كما ان الاسبان قد وقعوا ضحية مباغتة مذهلة كاملة فتنتهي المعركة خلال نصف ساعة ، بمقتل خمسمائة اسباني اي الحامية الاسبانية كلها عن بكرة ابيها ، و...اربعة ريفيين فقط . ويغتنم الخطابي في هذه المعركة كمية كبيرة من السلاح ، بينها اربعة رشاشات ومدفعا هاون ومدفع جبلي . ولا يضيع الريفيون الوقت بل يبدأون فورا بالتدرب على استعمال هذه الاسلحة الجديدة و الغريبة عليهم ، فالجيش الاسباني يبعد عنهم في موقعه بالوادي مسافة عشرة اميال فقط ، وقد لا يمر وقت طويل قبل ان يحاول انتزاع هذا الموقع الاستراتيجي منهم .

ولما كان الريفيون شعبا ذكيا ، فانهم يتعلمون استعمال الآلات بسرعة مدهشة وهكذا يتقنون استعمال الرشاش و المدفع في وقت وجيز ، اما الهاون فيخفقون في استجلاء غوامضه وتكلفهم محاولاتهم يد احد رجالهم .

وفيما هم يتدربون تصل وحدة من الجبش الاسباني ، فيحول الريفيون المدفع صوبها ويقصفونها حتى ترتد ويحاول الاسبان الرد على القصف بمثله ، الا ان الموقع يظل خارج نطاق مدفعيتهم لارتفاعه .

ويصل الى الجنرال سيلفستري في سيدي ادريس نبأ الكارثة ، فيبرقه بدوره الى رئيسه الجنرال بيرنغوير في تطوان . ويدهش الاخير عندما يعلم بمغادرة

سيلفستري لميناء مليلة على رأس جيش وبتغلغله في بلاد الريف بدون علمه ، فيلتقي بسيلفستري على ظهر باخرة ويدور بينهما نقاش عاصف يلوح خلاله سيلفستري برسالة الملك التي يفوضه فيها بالزحف ، وعند ذلك يتراجع بيرنغوير ويكتب تقريرا الى مدريد يعلن فيه ان معركة عبران هي مجرد نكسة مؤقتة والموقف لا يشكل خطرا . وهل بامكان بيرنغوير ان يفعل غير ذلك عندما يعلم ان عند مرؤوسه سيلفستري " كارت بلونش " من الملك الفونسو الثالث عشر ؟؟ على كل حال ، فقد اشاع الاسبان فيما بعد ان حصن عبران سقط بيد الريفيين بسبب تمرد رجال الحامية على ضباطهم . وكان العالم على استعداد لتصديق هذه الاشاعة التي تنتقص من حجم النصر الريفي لولا ان الهزائم المتكررة التي تتالت على الاسبان بعد ذلك لم تعد تفسح مجالا لمزيد من التبريرات .

معركة انوال التاريخية

بعد معركة عبران ، ارتفع رصيد الخطابي بين الريفيين فسارعت القبائل الى الانطواء تحت لوائه . وكانت الخطوة الاولى هي القضاء على الحصون الاسبانية الاخرى . ولما لم يعد عنصر المباغتة كافيا بعد معركة عبران ، فقد لجأ الريفيون الى تكتيك جديد تعلمه منهم الفيتناميون فيما بعد وطبقوه بنجاح في معركة ديان بيان فوبعد ذلك بثلاثين عاما فقد اخذ الريفيون يحضرون الانفاق تحت الحصون ثم يحشونها بالمتفجرات . فما ان تنفجر الارض في صحن الحصن ، حتى يفر الاسبان الى الخارج وبعد ذلك يحصدهم الريفيون بنيرانهم . وخلال شهر تمكن الريفيون من اسقاط الحصن تلو الحصن ، بينما كانت القوة الرئيسية للجيش الاسباني طوال هذا الوقت لا تبعد عنهم الا مسافة عشرة اميال .

وبعد ان طهر الخطابي الجبال و التلال من الاسبان قرر النزول الى الوادي لمنازلة الجيش الاسباني ، وكانت قواته قد نمت الآن فاصبحت تضم حوالي ستمائة مقاتل ولذا فقد صمم ان يتبع استراتيجية هجومية . اما سيلفستري فلم يثبط عزمه سقوط حامياته بل ظل يقول لكل من يريد ان يسمع : ساشرب الشاي في دار الخطابي سواء شاء ام ابى . ولم يستطع رئيسه بيرنغوير كبحه ، فقد كان بمثابة صك على بياض لمغامراته ولذا سارت التراجيديا الاسبانية في طريق المحتوم .

ووقع الاسبان في الفخ عندما اقاموا حامية في اغريبين وهي منطقة تبعد اربعة اميال عن اقرب مصدر للماء ، فحاصرها الريفيون ، وعندما قدمت قوة لنجدة المحاصرين خرجت وحدات من حامية اغريبين لملاقاتها . فانتظر

الريفيون الى ان يصبح العدو على مئتي متر ، ثم اصلوهم نيرانا حامية من خنادقهم ، فسقط ١٥٢ اسبانيا وتقهقرت البقية ..

وبدأت الحامية الاسبانية تعاني من العطش الى درجة ان بعض الرجال شربوا من دمهم ، فعرض الخطابي عليهم الاستسلام ، الا ان قائدها رفض قائلا انه لن يستسلم الا للموت .

وكان الخطابي على ثقة من النصر ، الا ان الذي يقلقه كان نقصان الذخيرة في ترسانته اذ لم يبق لدى رجاله اكثر من خمس وعشرين خرطوشة لكل فرد . كما ان مقاتلي الريف لم يكونوا معتادين على قتال المواقع ، فاخذ الانتظار الطويل في الخنادق التي حفرها حول اغريبين يثير ضجرهم . ولم يكن باستطاعة الخطابي ان يحاول استبقاء رجاله بالقوة ، فجيشه كان مؤلفا من المتطوعين فقط ، ومن حلفائه من رجال القبائل الاخرى ولذا كانت حجته الوحيدة في حث رجاله على البقاء حيث هم ، هو ان المعركة العظيمة بانتظارهم ، اذا فازوا عليها فان انحسار الموجة الاسبانية عن بلاد الريف يصبح مؤكدا وفي ٢١ تموز تدفق الاسبان الى موقعهم في انوال ، وراقبهم الخطابي بواسطة منظاره المقرب فعلم ان سيلفستري قد صمم على ان يرمي بقوته كلها في المعركة القادمة.

وهكذا رفع الستار عن معركة انوال الفاصلة ، عندما وقف ستمائة ريفي مسلحون بالاسلحة الخفيفة وتنقصهم الذخيرة ينتظرون الاشتباك مع جيش اوروربي حديث يتالف من اربعة عشر الف مقاتل مزودين بالاسلحة الثقيلة . الا ان جيش الخطابي كان يتمتع بروح معنوية عالية ، فذلك اليوم صادف ذكرى نصر الرسول في معركة بدر .

وتقدمت جحافل الاسبان تحت مظلة من نيران مدفعيتهم الى ان اصبحت على بعد يتراوح بين مئة ومئتي متر من خنادق الريفيين ، فاصدر الخطابي اوامره باطلاق النار . وفي خلال دقائق معدودة اطلق الريفيين كل ما لديهم من ذخيرة فتهاوت صفوف الاسبان وبدأ تراجعهم في غيمة من الغبار و الدخان . وكان سيلفستري يراقب جيشه من سطح بيت في انوال فلما شاهد تراجعهم فقد اعصابه كليا . وفي الواقع لم يكن الاسبان قد خسروا المعركة نهائيا بعد اذ حتى لو فقدوا نصف عددهم في تلك المجابهة القصيرة ، فان النصف الآخر كان لا يزال اكثر من عشرة اضعاف القوة الريفية عددا وعدة . كما كان سيلفستري لا يزال يسيطر على الممر الجبلي حيث كان يحتفظ هناك بوحدات بامكانها ان تؤمن طريق انسحابه . ولم تكن تنقصه الذخيرة . وكان بمقدوره ان ينسحب انسحابا منظما الى

قاعدته الاولى ، او على الاقل لن يحفر الخنادق حول انوال ويتمركز فيها الى ان تأتيه الامدادات من بيرنغوير . الا ان غروره منعه من الاعتراف بهزيمته ، فقد ابرق الى بيرنغوير بان جيشه تعرض لنكسة مؤقتة وانه لهذا قرر الانسحاب من الوادي . ولكن غلطته المميتة انه لم يبدأ بالانسحاب تلك الليلة نفسها ، اذ لو فعل ، لعجز الريفيون عن مطاردته وذلك لعدم توفر الذخيرة لديهم . الا انه قضى ليلته حيث هو ، فتسنى للريفيين ان يقضوا الليلة يبحثون عن الذخيرة المتروكة في ساحة القتال ، فقد خلف الاسبان منها كميات كبيرة اثناء انسحابهم السريع .

واثناء تلك الليلة رسم الخطابي خطة المعركة في اليوم التالي ، فقد قسم جيشه الصغير الى قسمين ، اناط بالقسم الاول الذي قاده بنفسه مهمة محاصرة انوال ، اما القسم الثاني الذي وضعه تحت لواء شقيقه محامد فاسند اليه مهمة مطاردة الاسبان عبر الممرات الجبلية اثناء انسحابهم المرتقب . ولم يكتف الخطابي بذلك، بل انه ارسل بنخبة من افضل محاربيه لاقتحام القرية تحت جنح الظلام وبث الذعر في نفوس الاسبان ، في غارة خاطفة تستهدف النيل من معنويات العدو اكثر من تحقيق نصر حاسم .

وما ان اطلت شمس اليوم التالي حتى زحف الاسبان خارج القرية في طريقهم الى الممر الجبلي . ولكن الريفيين احاطوا بهم من كل جانب تقريبا ، وبدأت المجزرة التاريخية الشهيرة . وفي خلال دقائق كان الجنرال سيلفستري نفسه قائد الجيش الغازي ، قد سقط قتيلا برصاص الريفيين ، فانهار جيشه ووصلت انباء الكارثة الى رجال القبائل الاخرى الذين لم يكونوا قد تورطوا بعد في الحرب ، فتدفقوا على ساحة المعركة من جميع الجهات . ولم يعان اهل الريف من نقص السلاح او الذخيرة هذه المرة . فعلى الميدان انتشرت الآلاف من قطع السلاح المختلفة بالاضافة الى ذخيرة ومؤن جيش كامل .

وفي هزيمتهم ، تخلى الجنود الاسبان عن وسائل نقلهم ومخازنهم ومدافعهم . كما ان حاميات الحصون في طريق الانسحاب تخلت عن مواقعها وانضمت الى مواكب المنهزمين فضاق الممر الجبلي بهم . وكان الجنرال نافارو قد خلف سيلفستري في قيادة الشراذم المندحرة ، فتوجه مع هذه الى تل اسمه " مونت اروي " ليقف هناك وقفته الاخيرة .

ومرة اخرى ارتكب الاسبان غلطة قاتلة ، اذ كان الموقع الذي تحصنوا فيه يبعد الف متر عن اقرب بئر . وفي خلال ايام فقد الاسبان ٢٦٠٠ جندي في الدفاع عن هذا الموقع الميؤس منه . واخيرا عندما سلم الجنرال نافارو نفسه الى الخطابي في ٢ آب لم يكن قد بقي معه الا اربعمائة جندي ..... من اصل عشرين

الف جندي كانوا قد زحفوا تحت راية الجنرال سيلفستري عند بدء غزوه لبلاد الريف .

و بالاضافة الى ١١٠٠ اسير اسباني ، غنم الريفيون عشرين الف بندقية و اربعمائة رشاش و ١٢٩ مدفعا . ولم يخسروا في الحملة كلها اكثر من بضع عشرات من القتلى و الجرحى .

وهكذا انتهت مذبحة انوال الرهيبة ، فدخلت التاريخ كاول معركة في القرن العشرين ينهزم فيها جيش اوروبي هزيمة تامة على بضع مئات من الرجال ينتمون الى حضارة كانت آنذاك متأخرة وكأنها ما زالت في القرون الوسطى .

وليس في التاريخ الحديث معركة اخرى يمكن مقارتنها بمعركة انوال .

اصاب العالم الذهول عندما سمع بتدمير الجيش الاسباني في انوال . اما في اسبانيا فقد عم السخط تلك البلاد ، فسقطت الوزارة وحلت مكانها حكومة جديدة وبات الشعب يتساءل : لماذا يريد ساستنا ان يورطونا في المغرب بينما بلادنا بحاجة الى الاصلاحات الماسة ؟؟ ان مستوانا الاقتصادي هو الاسوأ في اوروبا واكثرية الشعب ما زالت امية و نحن لا نجد الكفاية من الغذاء لاشباع بطوننا ، ومع ذلك يبحث حكامنا عن المغامرات خارج حدودنا ، فيبعثون بالجيوش التي يتألف جنودها من الفالاحين الشباب الذين لم يسمح لهم فقرهم بان يدفعوا البدل من اجل التخلص من الخدمة العسكرية .

هؤلاء المساكين هم وقود المدافع ، وهم الذين يدفعون ثمن جشع اهل المال الذين يحلمون بالكنوز المزعومة في ارض الريف .

اما الخطابي فقد وجد نفسه في محنة بعد نصره العظيم في انوال ، فكان رجاله يلحون عليه ليشن الهجوم على آخر معقل اسباني غربي ببلاد الريف ، اي على ميناء مليلة الذي كان الاسبان قد احتلوه بخمسة قرون . فبعد هزيمة الجيش الاسباني اصبحت هذه المدينة بمثابة لقمة سائغة اذ لم يبق لها حول ولا قوة . ولكن الخطابي عارض رأي رجاله بثبات فمع ان اكثرهم كانوا من حلفائه الذين لم تكن عليهم الا سلطة ادبية ، باعتبار ان ديقراطية المساواة تسود مجتمع الريف، الا ان نصره العظيم كان قد جعله يتبوأ مركز الزعامة فيما بينهم وان كانت هذه الزعامة هي زعامة رجال متساوين في المركز . وكانت حجة الخطابي في عدم الهجوم على مليلة ان هذه المدينة كانت مليئة بالنساء والاطفال فكان يخشى ان تحدث في المدينة مجزرة تضر بسمعة اهل الريف فيتحول تأييد العالم لهم الى نفور فيصفهم بالبربرية و الهمجية . ومع ادراك الخطابي الكامل

لاهمية هذه المدينة واحتمال ان تصبح في يوم من الايام قاعدة لغزو اسباني جديد لبلاد الريف ، كما حدث فعلا بعد ذلك بسنوات قليلة ، الا انه لم يندم قط على قراره فيما بعد . واحاط الريفيين بالمدينة من كل جانب الا انهم لم يحاولوا فتحها. وبعد وقت وجيز وصلتها الامدادات من اسبانيا فبلغ عدد الجنود فيها ١٣٦ الفا ، وكان من بين ضباط هذه القوة الميجر (رائد) فرانسيسكو فرانكو الذي لعب فيها دورا هاما في حرب الريف قبل ان يصبح رئيسا لاسبانيا .

واستطاع هذا الجيش استعادة بعض المناطق من الريفيين بعد اشتباكات بالغة العنف . وقد ادعى الاسبان انهم وجدوا جثث جنودهم من معركة انوال وقد شوهت تشويها عظيما . ومن المكن ان يكون بعض رجال الريف قد عذبوا فعلا الاسبان الذين وقعوا في ايديهم ، ولكن هذه كانت حوادث متفرقة و ليست القاعدة التي يقاس عليها . فالخطابي كان قد وعد جنوده بمكافآت مالية لقاء كل اسير اسباني يأتونه به ، كما كان يعاقب بالموت كل من يسيء الى الاسرى ، ولكن الاسبان بقصفهم الجوي لقرى الريف وقتلهم النساء و الاطفال فيها ، واستعمالهم الغازات السامة ، كل ذلك ادى الى وقوع عدد من حوادث التعذيب و التشويه التي لا ريب انها كانت دون علم الخطابي وسائر قادته .

وكان الخطابي قد اسر ثمانمائة اسباني بينهم بعض النساء ، وقد شهد هؤلاء بعد اطلاق سراحهم ، بانهم كانوا يتناولون نفس الغداء الذي يتناوله حراسهم الريفيون ولم تكن معاملتهم سيئة .

وقد انشغل الخطابي في هذه الاثناء بوضع دعائم لثورة ثقافية في اقليمه ، فحرم عادة الثأر المتأصلة في النفس ، نفس كل ريفي ، كما رسخ القانون . وعندما قيل له ان ينتقم من الشخص الذي كان قد اتهم بوضع السم لعبد الكريم الخطابي مما ادى الى موته رفض الخطابي ان يذعن الى ذلك ، بل عفى عن الرجل قائلا انه لا توجد ادلة كافية بانه قتل اباه (اي ابا الخطابي) ، بل حتى عفى عن ابن هذا الرجل عندما اطلق عليه النار محاولا قتله .

ثم اعلن الخطابي استقلال بلاد الريف في عام ١٩٢٣ ودعا دول العالم الى انشاء العلاقات الدبلوماسية مع جمهورية الريف . هذا الاجراء جلب عليه انتقاد بعض المغربيين لانه حطم وحدة بلاد المغرب . وكان رد الخطابي ان المغرب كان مستعمرا من قبل الاسبان و الفرنسيين استعمارا كاملا مباشرا ، ولذا لم يكن بوسعه الا ان يعلن استقلال المنطقة التي حررها .

على كل حال ، فقد مضي الخطابي قدما في انشاء جمهورية حديثة ، فألف وزارة اشترك فيها بعض المقربين اليه ، ومنهم شقيقه محامد الذي كان باعتراف

الجميع من اكفأ رجال الريف . وقد رفض ان يلقب بلقب السلطنة ، مفضلا على ذلك لقب امير الريف ، كما منع ائمة الجوامع من الدعاء له في صلاة الجمعة ، تاركا لهم الدعاء لسلطان المغرب باعتباره الزعيم الديني ، لا الدنيوي ، نظرا الى انه كان اداة في يد الفرنسيين لجمهورية الريف المستقلة .

ومما يؤسف له ان اهتمام العالم تركز على الخطابي كقائد محارب ، ولم يوجه عناية كافية للاصلاحات الاجتماعية التي قام بها الرجل في منطقته . فالخطابي رفض ان يكون زعيما على الطريقة الشرقية التقليدية ، فلم يؤسس بلاطا ولم يبدل من عاداته ، كما حافظ على بساطة معيشته ، فلم يغير لباسه الريفي التقليدي ولم يبدل عاداته ، بل استمر على اتصاله الوثيق باهل البلاد ، ينصت الى شكاويهم بنفسه ويتجول بين ظهرانيهم دون ابهة او تكلف .

وقد ادخل نظام الخدمة العسكرية ، واناط باخيه محامد قيادة الجيش الناشئ المتكون من خمسة آلاف مقاتل نظامي ، كما كان التجنيد يحتم على كل ريفي يتراوح عمره بين السادسة عشرة و الستين في الجيش لفترة من الوقت .

وقد لاقت الخدمة العسكرية استحسان الجميع فالريفيون محاربون بطبيعتهم ، وقد تحمسوا الآن للتدريب على استعمال الاسلحة الحديثة للذود بها عن حرية البلاد اما رجال القوة الاصلية التي استطاع الخطابي بواسطتها احتلال حصن عبران وتدمير الجيش الاسباني في انوال ، فاعتبرهم الخطابي نواة لجيشه النامي ورقاهم جميعا الى رتبة كابتن (نقيب) .

وقد اشاع اعداء الخطابي فيما بعد ان جيشه تدرب على ايدي عدد كبير من الخبراء العسكريين الاوروبيين ، الا ان هذه الاشاعة كانت كاذبة من اساسها . كما اشاعوا بان لديه تحت تصرفه جيشا يتألف من خمسين الف رجل ، بينما لم يتوفر تحت قيادته في اي وقت من الاوقات اكثر من خمسة آلاف مقاتل نظامي ، كان ينضم اليهم احيانا رجال بعض القبائل من غير النظاميين للاشتراك في معركة معينة . اما الاسلحة التي استعملها اهل الريف فكانت جميعا من الغنائم .

ولم يهمل الخطابي الاصلاح الزراعي ، فكانت حكومته تضع يدها على الارض التي يهمل اصحابها زراعتها ، وتسلمها لمن يزرعها دون تأخير . كما اعاد توزيع مياه الري على المستحقين .

بقيت مشكلة الاسرى الاسبان ، فقد عرض الخطابي ان يطلق سراحهم مقابل ١٥٠ الف جنيه استرليني . ووافقت الحكومة الاسبانية على ذلك ، فاعيد الاسرى وكان من بينهم الجنرال نافارو و بعض كبار الضباط الآخرين ، بالاضافة الى

بعض النسوة . وفي ١٩٤٨ عندما هرب الخطابي الى القاهرة ، كتبت اليه احداهن تهنئه على هروبه من اعتقال الفرنسيين وتشكره على حسن معاملته لها اثناء وجودها خمسة اعوام في معتقلاته .

واستعمل الخطابي المبلغ في شراء الاسلحة من المغرب الفرنسية ، كما اشترى طائرة وجهاز تليفون كامل للميدان ، اناط مهمة تشغيله بريفي يبلغ السادسة عشرة من العمر فقط . وقد دهش مراسل اميركي زار المنطقة آنذاك عندما وجد هذا الفتى يقوم بمهمته خير قيام .

وجرت في هذه الاثناء اتصالات غير رسمية بين الاسبان و الخطابي ، فقد عرضت عليه مدريد نوعا من الاستقلال الذاتي المحدود ولكن الخطابي رفض هذا العرض . فهو كان متمتعا باستقلال فعلي ناجز ، فاشاعت اسبانيا ان الاستخبارات البريطانية هي وراءه كما حاولت رشوته بمبلغ مئة الف باون استرليني وتعيينه حاكما دمية لبلاد الريف .

ولم تحدث معارك كثيرة في هذه الفترة مع ان الوجود العسكري الاسباني في المغرب بلغ مئتي الف جندي . كان بين هؤلاء جنود الفرقة الاجنبية الاسبانية التي أنشأتها القيادة الاسبانية على غرار الفرقة الاجنبية الفرنسية . وكان قائدها هو فرانسيسكو فرانكو الذي اخذ يبرز كواحد من اقدر الضباط الاسبان ، فقد دحر الريفيين في معركة كلفتهم حوالي تسعمائة قتيل وجريح . وكان الريفيون قد قاموا بهجوم مباشر على مواقع الاسبان دون علم الخطابي ، فاغارت عليهم الطائرات الاسبانية واسقطوا منها واحدة ، لكن القنابل من الجو كبدتهم خسائر كبيرة .

وخلال الحرب اسقط الريفيون بضع طائرات ببنادقهم . حتى الخطابي اسقط بنفسه طائرة اثناء غارات الاسبان العديدة على مقر قيادته في اجدير .

هذه الخسائر كلها ثبطت عزم الشعب الاسباني ، فقام الجنرال بريمو دي ريفييرا بانقلاب واستلم مقاليد السلطة كلها . وكان هذا الجنرال الارستقراطي محبوبا من قبل الشعب و الجيش لمقدرته العسكرية ، فقد اصبح جنرالا في الثلاثين وحارب في المغرب و الفليبين . وحال استيلائه على السلطة ، توجه الى المغرب الاسباني حيث استلم القيادة المباشرة للقوات هناك . فاصدر اوامره بسحب جميع القوات من مواقعها الامامية الى مواقع معينة حول المعقلين الاسبانيين اللذين بقيا في المغرب : مليلة في الشرق وتطوان في الغرب وكانت هذه خطوة حكيمة تستهدف تحقيق مبدأ عسكري شديد الاهمية ، هو تركيز القوى وعدم تبذيرها . ولكن الغلطة المميتة وقعت عندما اعلن ريفييرا خططه على الملأ

معينا متى ستنسحب قواته و الى اين . فلما سمع بذلك المارشال الفرنسي الشهير ليوتي ، وكان آنذاك المقيم الفرنسي في المغرب الفرنسية ، قال بدهشة : يا الهي، ان اي جيش ينسحب عندما تتطلب الظروف منه ذلك ، ولكنه لا يعلن ذلك على العدو سلفا .

في هذه الاثناء قابل صحفي بريطاني الخطابي ثم عاد الى لندن لينشر سلسلة ريبورتاجات وليقضي على الاساطير العالقة باذهان الغرب حول بلاد الريف .

ففي العشرينات كانت افلام البطل و الممثل الايطالي الشهير و معبود النساء رودولف فالنتينو تكتسح العالم . وكان بينها فيلم اسمه "الشيخ" يروي قصة رومانتيكية تتحدث عن شيخ عربي وسيم يخطف فتاة انكليزية ويخضعها لحبه العنيف فتهيم به وتنسى العالم من اجله .

اما الواقع الذي تحدث عنه الصحافي البريطاني فكان يختلف عن ذلك . فان الخطابي لم يكن بالشيخ العربي الرومانتيكي الذي يخطف النساء ، بل كان زعيما لامع الذكاء يحاول ان يخرج بقومه من الظلام ، ظلام القرون الوسطى الى مشارق العصرالحديث وكان الخطابي قد حمل الصحافي البريطاني رسالة الى وزير الخارجية البريطاني فنشرتها الصحف البريطانية ، وعجب الانكليز لهذا الشيخ الشرقي الذي يكتب بدقة ووضوح ، دون اللجوء الى الديباجات والزخرفات اللفظية التي عرفت عن بقية زعماء الشرق . فالاسلوب كان اسلوب رجل يفهم الحياة الحديثة ويعرف كيف يعبر عن افكاره بقوة ودون التواء .

ولكن الاحداث العسكرية مرة اخرى جلبت انظار العالم . فالخطابي كان يعد العدة لقطع مواصلات الاسبان الطويلة اثناء انسحابهم ليحقق نصرا جديدا يشابه نصره في انوال ، فاحتفظ لنفسه بالقيادة العليا للجبهة الا انه اعطى القيادة المباشرة لشقيقه وساعده الايمن محامد الذي كان آنذاك في الثانية و الثلاثين من العمر ، اي يصغره بحوالي ثمانية اعوام . وهذه الجبهة برز محامد كشخصية لامعة ولا تقل في مواهبها عن امير الريف نفسه ، فقد نسق الهجوم على الجيش الاسباني بدقة ، كما رسم خطة بارعة نفذها الجيش الريفي الناشئ بنجاح .

وكان هدف الريفيين الاول احتلال مدينة تغرسيط ، ومرة اخرى دارت رحى معركة طاحنة انتهت بهزيمة الاسبان وجلائهم عن المدينة من غير نظام ، فتقدم الريفيون لتحرير مدينة اخرى هي داردريوس . وقاوم الاسبان بشجاعة خلف اسوار المدينة بعد قتال فظيع ، فتم تطهير شرقي اقليم الريف من الوجود الاسباني فيما عدا ميناء مليلة و الحصن في الجزيرة الواقعة في خليج الحسيمة

بالقرب من اغادير المدينة التي كانت مسقط رأس الخطابي و التي جعلها عاصمة لجمهوريته .

وفي الغرب كان الاسبان قد اقاموا سلسلة من الحصون على التلال المطلة على نهر لاو . وكانت اغلبيتها بعيدة عن مصادر المياه وتقع الطرق المؤدية اليها تحت رحمة نقاط يسيطر عليها رجال الريف ، وعهدت القيادة الاسبانية الى فرانكو بالتوجه مع فرقته الاجنبية للاشراف على الانسحاب من هذه الحصون ، وهناك شاهد الآثار التي ترتبت على سوء تفكير القيادة . ففي احد الحصون وجد الجنود يشربون الخل . اما في حصن آخر فلم يعثر الا على البقايا المتفحمة للحامية . فان قائد هذه الحامية رفض الاستسلام وفضل ان ينتحر ورجاله حرقا . ثم جاء دي ريفييرا ليرى الوضع بنفسه وهنا واجه معارضة القادة الاسبان للانسحاب . وحوصرت تطوان عاصمة المغرب ، الاسبانية ، فاجلي الجرحى الى ميناء كويتا الواقع بالقرب من جبل طارق . وقامت اسبانيا بارسال سلاحها الجوي باكمله المكون من ثلاثين طائرة لقصف قرى الريف ، مما نتج عنه مصرع عدد كبير من النساء و الاطفال باعتبار ان القرى كانت خالية من الرجال ومع ان الاسبان رفعوا قوة جيشهم في غرب الريف الى مئة الف جندي ، فالوضع بالنسبة اليهم ظل منحوسا . وكان بريمو دي ريفييرا يدير بنفسه عملية الدفاع عن تطوان واستعان الخطابي بضابط مغربي سابق في الجيش الاسباني اسمه بوحوت فزار هذا المنطقة ثم تكهن بان الاسبان سينفذون خطة انسحابهم على النحو التالي : انهم سيقسمون جيشهم الى ثلاثة فروع يزحف الفرع في المركز عبر طريق تؤدي الى شاوين في الجنوب اما الفرعان الآخران فيزحفان عبر ضاحية في محاولة للسيطرة على التلال التي قد يهاجم الريفيون الجيش الاسباني منها .

وكان الغرض من هذا الزحف مرافقة حامية شاوين في طريقها الى مراكز التجمع الاسبانية بالقرب من الساحل . وقد اقترح بوحوت عدم مهاجمة الاسبان الا في طريق عودتهم من شاوين عندما يكونون مثقلين بحمولتهم . وقبل الخطابي اقتراحه هذا لاسيما وان الاسبان ساروا فعلا بموجب هذه الخطة ، فقد زحف ٤٠ الف اسباني الى شاوين ، واكتفى الريفيون بمضايقتهم على الطريق . الا ان الاسبان ارتكبوا غلطة اخرى هنا ، فبالرغم من ان عملية سحب الحاميات من المناطق المحيطة كان قد خطط لتنفيذها خلال ستة ايام ، فالقادة الاسبان في المنطقة لم يكونوا في عجلة من امرهم ولذا امتدت العملية فاستغرقت ستة اسابيع، مما اتاح بذلك الفرصة للريفيين لان يعززوا مراكزهم حول الطريق الذي سيعود

الاسبان عبره . ولما كان الوقت خريفا فقد زادت الامطار الموسمية من متاعب الاسبان ، فغاصت عرباتهم في الوحول .

وفي ١٥ تشرين الثاني انسحب الاسبان من شاوين سرا ..... او على الاقل كانوا يظنون ان انسحابهم سيظل سرا ، اذ تركوا الدمى خلف الاسوار لتبدو لاهل الريف وكانها الجنود الاسبان . ولكن الحيلة لم تنطل على الخطابي الذي انتظر خروج الاسبان ليدخل المدينة ويصلي في مسجدها . واستمر الجيش الاسباني في انسحابه ، تحرس مؤخرته نخبته المقاتلة وهي الفرقة الاجنبية بقيادة فرانكو الذي كان قد رقي الى رتبة عقيد . وعمد الجيش الريفي الى اسلوب اضرب واهرب لمضايقة المنسحبين والنيل من روحهم المعنوية ، فكانت وحداتهم تظهر فجأة بين الصخور و الضباب ، فتمطر الجنود بوابل من الرصاص ثم تختفي بنفس السرعة التي ظهرت بها .

وعندما تزايد ازدحام الجنود على الطريق ، اخذ الريفيون يزدادون جسارة في هجماتهم ، حتى بدا للاسبان وكانهم يحاربون جيشا من الاشباح ، فالريفي مشهور بدقة تصويبه وسرعة حركته . وكان بين الذين سقطوا صرعى الجنرال سيرانو ، كما جرح جنرال آخر . واستمر الزحف تحت المطر ورصاص الريفيين ، ومر يومان دون ان يذوق الاسبان طعاما حتى فعل الارهاق فعله فيهم ، فانهاروا وخلفوا مخازنهم ليستولي عليها جيش الخطابي .

واخيرا قرر الخطابي ان يطلق رصاص الرحمة على الجيش الاسباني المنسحب فكانت المعركة الاخيرة في وادي نخلة . وفي هذه المعركة ابدت بعض الوحدات الاسبانية التي كلفت تغطية المؤخرة بطولة عظيمة دخلت في اساطير بلاد الريف . فقد عهدت القيادة الاسبانية الى ثلاث عربات مدرعة بحماية الجنود اثناء عبورهم للنهر حتى يصبح آخر جندي في الضفة الأخرى . وفعلا قام الجنود الاربعة عشر في المدرعات الثلاث بهذه المهمة طوال ثلاثة ايام استطاعوا فيها ايقاف تقدم القوات الريفية وظلوا هذه المدة دون ماء او غذاء . وفي اليوم الرابع سحب الريفيون مدفعا الى مقربة من المدرعات ودمروها ، فقتل ثمانية من طاقمها واصيب اثنان بجروح بليغة ولم يبق الا اربعة دون اصابة ، فاستسلموا . وعند ذلك امر القائد الريفي المسؤول عن المنطقة بان يصطف جنوده لاداء التحية العسكرية للاربعة . ثم ارسلهم الى القيادة العامة لقوات الريف حيث امر الخطابي بوضع الاربعة في رأس قائمة الاسرى المعدة للاستبدال مع الاسبان . ولكن هذه البطولات الاسبانية لم تقلل من الكارثة التي وقعت بالجيش ، فبعد ان وصل آخر جندي الى تطوان في نهاية الانسحاب ، اصدرت القيادة بلاغا عن خسائرها جاء فيه ما يلي :

مصرع جنرال واحد وستة ضباط برتبة مقدم وثمانية برتبة رائد و١٧٥ ضابطا آخر . كما جرح ٦٠٠ ضابط . اما الجنود فقد قتل او فقد سبعة عشر الفا منهم .

وهكذا انتهى الانسحاب بكارثة فظيعة تفوق حتى كارثة انوال ، واعترف الجنرال بريمو دي ريفييرا بذلك عندما صرح للصحفيين : "ان عبد الكريم قد هزمنا ، وانا اؤيد الانسحاب من افريقيا كلها . فقد فقدنا عشرات الآلاف من القتلى وخسرنا ملايين (البيزيتا العملة الاسبانية) دون ان نكسب مقابل ذلك شيئا واحدا " .

ثم اعلن بعد ذلك وهو يعرض للصحفيين خراطيش قال انها اخذت من ريفي مقتول : ان هذه هي خراطيش فرنسية الصنع . اني اؤكد لكم ان عبد الكريم عندما ينتهي منا ، سيهاجم الفرنسيين ، مستعملا ذخيرتهم ضدهم .

هل كان ريفييرا على حق في اتهامه فرنسا بانها تساند الخطابي ؟؟ ان جميع الادلة تشير الى ان هذه لا تعدو ان تكون حجة تبريرية لجأ اليها الاسبان لتفسير هزائمهم المتعددة ، ولكن لعل اكبر برهان على كذبها ما ورد في تقرير كتبه المارشال ليوتي ، المقيم الفرنسي العام في المغرب الفرنسي الى رؤسائه في باريس قال فيه : " لا يوجد ما يشكل خطرا على نظامنا اكثر من اقامة دولة اسلامية مستقلة عصرية بهذا القرب من فاس ، حيث سيصبح عبد الكريم ليس فقط محط انظار المنشقين في منطقتنا وانما ايضا لكل العناصر المغربية ، وخاصة الشابة منها ، التي وسعت الاحداث الاخيرة في الشرق (شرق المغرب) تطلعاتها وغرست في تفكيرها آمالا معادية للغرب .

وهكذا كان واضحا للجميع ان الاصطدام مع السلطة الاخرى في المغرب ، مع فرنسا ، التي كانت يومئذ ثاني اعظم قوة استعمارية في العالم بعد بريطانية ، هذا الاصطدام بات وشيكا ، وان نتيجته ستقرر مصير المغرب العربي لبضعة عقود من السنين .

وهكذا اخذت فرنسا تستعد للحرب القادمة . اما في اسبانيا ، فقد انتصرت وجهة نظر القيادة العامة على رأي دي ريفييرا الذي كان يؤيد الانسحاب من المغرب كله . وتقرر اعداد حملة ضخمة جدا لانزالها في قلب بلاد الريف من اجل سحق الحركة التحررية هناك .

وارتفع الستار عن الفصل الاخير في الدراما الريفية في ١٣ نيسان ١٩٢٥ عندما شن اخطابي هجوما عاما على القوات الفرنسية المتمركزة في جنوب بلاد الريف.

الحقيقة القاسية التي ادركها الاستعمار هي انه يواجه اقوى عدو في تاريخ حملاته الامبريالية . ففي حين اوقع الخطابي بالاسبان هزائم متوالية وقف العالم مشدوها حيالها تكرر الامر بالنسبة للفرنسيين الذين كانوا آنذاك يمتلكون اقوى جيش في العالم . ووقف الثائر المغربي يواجه زحف الطائرات واساطيل الجيشين ، ولكن بعد مقاومة ملحمية لا تنسى ، تقع راية النصر من يد الخطابي وينتقل الى المنفى . وهكذا يضع التاريخ خاتمته لطليعة ثورات العالم الثالث ..... ثورة خاضها خمسة آلاف ريفي مسلح ضد اكثر من نصف مليون جندي اوروبي.

يتهم المؤرخون الفرنسيون الخطابي دائما بانه ارتكب خطأ مميتا عندما هاجم القوات الفرنسية في المغرب ، فهو الذي اوقد شرارة الحرب وهو الذي حصد العاصفة حسب قولهم . ويتجاهل هؤلاء المؤرخون ان الخطابي لم يكن مخيرا في اعلانه الحرب على فرنسا . اذ انه وهو العسكري القدير لا ريب كان يعلم ان القتال ضد عدوين وعلى جبهتين في نفس الوقت ليس بالعمل المضمون النجاح . ولكنه لم يكن مخيرا فالاحداث هي التي اضطرته الى اتخاذ الخطوة التي ادت في النهاية الى انكساره لماذا اذا حارب الخطابي فرنسا في الوقت الذي كان فيه قد هزم اسبانيا وحرر اكثر اراضي الريف من استعمارها ، كما وحد بلاده وبدأ يبني فيها جهازا حكوميا عصريا ؟؟

الجواب على ذلك يمكن اختصاره في عبارة واحدة : العرف او الليف ، كما يسمى في بلاد الريف ، هو الذي دفعه الى السير في ذلك الطريق الصعب . ويجب هنا ان نتوقف قليلا لتفسير " الليف " . ان الليف وهذه هي على الارجح كلمة من لغة البربر ، تعني نظام الاحلاف بين القبائل . ويفسر احد المختصين بعادات وتقاليد اهل الريف هذا النظام على النحو التالي : اذا وجدت قبيلة نفسها مع نزاع مع قبيلة اخرى ، اقوى منها وباتت على وشك الهزيمة فان بعض رجالها يأخذون ثورا من ماشيتهم الى اقرب قرية تابعة الى قبيلة ثالثة وهناك يسلمون الثور الى فقيه بتلك القرية لينحره على باب الجامع ولما كان اهل الريف فقراء ويقتاتون عموما على النباتات لندرة اللحوم ، فان التضحية بثور هي خسارة كبيرة لاصحابه . ولذا فالغرض من هذا العمل هو استنخاء القبيلة الثالثة لمحالفة القبيلة الضعيفة ومساعدتها في حربها ضد القبيلة التي كادت ان تهزمها

اي وضع القبيلة الثالثة تحت مخافة العار ، باعتبار ان الشهامة القبلية و المروءة الاسلامية تحتم على الانسان ان يساعد الضعيف والا فقد ماء وجهه امام الناس .

وكان الخطابي قد لجأ الى هذا العرف القديم في استنخاء القبائل الاخرى لتحالفه ضد الجيش الاسباني . بل كان في كثير من الاحيان يقول لتلك القبائل بصراحة : نحن افقر من ان نتمكن من تضحية ثور على باب المسجد لاجل ان نستنخيكم ، ولكن عار عليكم الا تساعدونا ضد العدو المشترك الذي يبغي احتلال ارضنا ومعاملتنا معاملة العبيد .

وكان هذا المنطق ناجحا دائما مع تلك القبائل ، ولا سيما بعد معركتي عبران وانوال عندما رأى اهل الريف في الخطابي زعيما مخلصا لقومه ومقاتلا شديد البأس . ولكن مأساة الخطابي تكمن في ان نفس هذا العرف ادى الى سقوطه بعد ذلك . فالذي حدث كان كما يلي :

في جنوب بلاد الريف وبمحاذاة المنطقة المغربية الواقعة تحت الاستعمار الفرنسي كانت تقطن ثلاث قبائل هي غزاوة وبني زروال وغزنايا . وفي يوم من الايام اقتحم الفرنسيون هذه المناطق الثلاث وبدأوا بتشييد الحصون فيها . ولما كانت هذه القبائل قد عاشت مستقلة حتى ذلك اليوم ، ولم تطأ اراضيها قدم اجنبية قبل ذلك ، فقد استجارت بامير الريف . وذهب شيخ بني زروال لمقابلة الخطابي في مقر قيادته في آيت قمره ، فاخبره بما حدث ، ثم قال له : في نفس هذه اللحظة التي انا اكلمك فيها يقوم رجال من قبيلتي بنحر ثور على عتبة المسجد في مدينتك اغادير . وهكذا وجد الخطابي نفسه في موقف طالما خشي ان يحدث ، فان محاربة فرنسا التي كانت آنذاك اقوى دولة في اوروبا بل في العالم كله ، لم يكن بالامر الذي يتطلع اليه بشوق ، فهو قد حرر بلاده من نير اسبانيا وحقق جميع اهدافه ، فلماذا يخوض مثل هذه المغامرة الشديدة الخطر ؟؟ ولكن هل يمكن للبطل الذي توجهت اليه جميع الانظار ان يرد المستجير خائبا ؟ ان العرف القبلي صارم لا يلين ، ولا يمكن لمجتمع بدائي مثل مجتمع الريف ان يغفر لمن يتنكر لهذا العرف بعد ان كان قد افاد منه في الماضي .

وهكذا وجد الخطابي نفسه مرغما على السير في طريق تحفه الاشواك ويؤدي الى الهاوية . فقال لمستشاريه : اني الآن على وشك الاقدام على ارتكاب عمل طائش ، اذ ليس لي خيار في الموضوع ، ووافق مستشاروه على قراره .

في ١٣ نيسان ١٩٢٥ هبت العاصفة . فقد هاجم حوالي اربعة آلاف ريفي الخط الفرنسي ، وفي خلال ايام معدودة كان هذا الخط قد انهار ، فقد سقط الحصن تلو الآخر بيد الخطابي وبات الجيش الريفي على بعد عشرين ميلا من

اشهر مدينة في المغرب : فاس . وافاق الفرنسيون على انفسهم فوجدوا انهم اصبحوا قي ذات المأزق الذي واجه الاسبان بعد معركة انوال . وما يثير السخرية ان الفرنسيين كانوا دائما يتهكمون على الجيش الاسباني ويشيرون ضاحكين برثاء الى مواطن ضعفه وفساد قيادته .

الا ان الهزائم التي اوقعها الخطابي بالجيش الفرنسي لم تكن حاسمة . فان عدم زحفه لاحتلال فاس ، وتركيزه على تدمير الحصون الفرنسية المحيطة بالمنطقة كلفه الكثير من الوقت و الجهد . وفي نفس الوقت كانت باريس ترسل الامدادات الضخمة الى المغرب كما انها استدعت مارشالها الشهير ليوتي واحالته الى التقاعد ، ثم كلفت واحدا من اكبر قادتها اثناء الحرب العالمية الاولى : المارشال بيتان (الذي حكم عليه ديغول بالسجن المؤبد بعد الحرب العالمية الثانية لتعاونه مع الالمان وترؤسه حكومة فيشي) بالتوجه الى المغرب ودراسة الموقف العسكري هناك عن كثب . ففعل بيتان ذلك ، وبعد عودته الى باريس ، اعلن بان " الحقيقة القاسية هي اننا نواجه اقوى عدو في تاريخ حملاتنا الاستعمارية " .

وردت الحكومة الفرنسية على هجوم الخطابي بارسال سرب من الطائرات بقيادة طيارين امريكيين متطوعين ، اي مرتزقة ، لقصف مدينة شاوين مع انها كانت تعلم ان كل رجل قادر على حمل السلاح كان خارج تلك المدينة . وكانت نتيجة القصف الفظيع موت وتشويه عدد كبير من النساء و الاطفال و الشيوخ ، كما ذكر مراسل التايمز في تقريره الى صحيفته .

وكان الجيش الفرنسي في المغرب يتألف من ٦٥ الف رجل . الا ان الحكومة سرعان ما ضاعفت العدد . وما ان حل ايلول حتى كان العدد قد ارتفع الى ٢٠٠ الف جندي فرنسي بقيادة مارشالين (احدهما بيتان) و٤٠ جنرالا . كل هذه الجحافل ضد خمسة آلاف ريفي مسلح واقليم لا يتجاوز عدد سكانه ٦٠٠ الف نسمة . ولكن الخطابي كان يعلم انه لا يستطيع المقاومة ضد الفرنسيين الى اجل غير محدود . فعرض عليهم التفاوض من اجل التوصل الى اتفاق ، الا ان علم سريعا ان الفرنسيين لن يقبلوا باقل من تحطيم جمهورية الريف نهائيا و اعادة المنطقة الى السيطرة الاسبانية باعتبار ان بريطانيا المصرة على الاحتفاظ بتوازن القوى في اوروبا ، كانت ضد احتلال الفرنسيين للريف وذلك لمتاخمة تلك المنطقة لقاعدتها العسكرية ذات الاهمية الاستراتيجية الكبرى في مضيق جبل طارق .

وهكذا استمرت الحرب ، وبلغت العالم الخارجي اخبار البطولات المذهلة لأهل الريف ، ولاسيما قول احد الضباط الفرنسيين : انهم اناس رائعون ، هؤلاء البربر ، فهم لا يعرفون بوجود كلمة استسلام و الواحد منهم على استعداد دائما لمشاغلة دورية بكاملها . اذ انهم لا يهربون ابدا . اني معجب بهم واحبهم ولكني اقتل الواحد منهم حالما اراه . وفي الواقع مقدرة اهل الريف على القتال كانت اسطورية ، فهم بالاضافة الى شجاعتهم الفائقة وقوة بأسهم وسرعتهم في الحركة، كانوا ايضا واسعي الحيلة وذوي اساليب مبتكرة دائما . وعلاوة على ذلك كانت لهم قدرة عجيبة على التسلل خلف خطوط اعدائهم لسرقة اسلحتهم . وحتى عندما اضطر الجنود الفرنسيون الى ربط اسلحتهم الى رسغهم عند اليوم ، فان الريفي يتسلل الى المعسكر عاريا بعد ان يطلي جسده بالزيت حتى يصعب الامساك به ، فيذبح ضحيته ويسرق بندقيتها . وقد تصاعدت الخسائر في الارواح و السلاح من جراء هذا التكتيك الى درجة ان القيادة الفرنسية لم تجرؤ على نشر قائمة بخسائرها على الرأي العام .

الا ان الخسائر التي اوقعها الخطابي بالفرنسيين لم تحجب عنه حقيقة واضحة جدا ، وهي انه لن يستطيع الى ما شاء الله انزال الهزائم بعدوين في جبهتين . ففي جنوب بلاد الريف كان الفرنسيون قد حشدوا مئتي الف رجل ، وكان مثل هذا العدد من الاسبان يتربص له في الشمال و الغرب . كما وصل الى علمه ان اسبانيا قد ابتاعت من بريطانيا عددا من سفن الانزال ، فتيقن ان الغزو الاسباني بات وشيكا .

في ١٠ آب تحالفت القوات الفرنسية و الاسبانية لاول مرة ، فسقطت مدينة بيبان ذات الاهمية الاستراتيجية الكبيرة ، وكان فقد الريفيين لها ايذانا بانحسار موجة انتصاراتهم فقد تم طردهم من جميع المناطق التي كانوا قد احتلوها داخل المغرب الفرنسي ، وعند ذلك قرر ريفييرا القيام بعملية انزال ضخمة في قلب بلاد الريف تستهدف احتلال اجدير . عاصمة الخطابي ، ثم تزحف جنوبا لتلتقي بالقوات الفرنسية ، مطهرة بذلك بلاد الريف من الثوار .

وجرى اعداد الخطة بدقة ، فالقيادة الاسبانية كانت قد افادت من اخطائها الماضية ، كما ان زعامة دي ريفييرا و مقدرته العسكرية كفلت لهذه الحملة بالنجاح . وقامت الطائرات الاسبانية بالقاء مناشير بالعربية على اهل الريف تعلمهم فيها ، بل تنذرهم بان الجيوش الفرنسية و الاسبانية زاحفة على بلادهم لمعاقبة الخطابي ، ولذا فأمام القبائل ثلاثة ايام للتسليم . وطبعا لم يأبه الريفيون لهذا الانذار ، بل وضعوا ثقتهم في الله وفحصوا بنادقهم استعدادا للمعركة القادمة الفاصلة .

وحاول الاسبان القيام بعمليات تمويهية ، الا انها لم تخدع الريفيين ، رغم انهم لم يشكوا في نية الاسبان الجدية في غزو الريف ، فتحت تصرف الاسبان كانت توجد ٦٣ ناقلة جنود بالاضافة الى ٣٦ باخرة حربية ، تساندها ٨٨ طائرة و ١٢ طائرة بحرية ، معدة جميعا للحملة المرتقبة ، علاوة طبعا على الاسطول الفرنسي المساند . وفي فجر الثامن من ايلول ١٩٢٥ فتح الاسطولان الفرنسي و الاسباني اللذان تألفا من ١١١ باخرة ، مدافعهما عبر خليج الحسيمة على الريفيين . وعقد الخطابي اجتماعا عاجلا لمناقشة الوضع . ولما كان للاسبان حصنا في جزيرة الحسيمة ، فقد توقع قادة الريف ان ينزل الاسبان قواتهم في اقرب نقطة على الساحل من تلك الجزيرة . وكان من الضروري جدا ان يعرف الخطابي اين سيكون موضع الانزال بالضبط ، وذلك بسبب قلة القوات المتيسرة لديه في تلك المنطقة ، ولم يكن باستطاعته ان يوزع قواته وينشرها على طول الساحل فيضعف خط دفاعه ويخرق بذلك القاعدة العسكرية الاساسية التي تحث على تركيز القوى وعدم بعثرتها .

ووقع الخطابي و قادته في الخطأ عندما توقعوا الانزال الاسباني في قلب خليج الحسيمة ، اي في موقع قريب من الجزيرة المعروفة بذلك الاسم و التي كان للاسبان فيها حصن . ولم يكن الخطأ الذي وقعوا فيه يختلف في فداحته عن خطأ المارشالين الالمانيين رونشتدت ورومل عام ١٩٤٤ عندما فاجأهما انزال الحلفاء في نورمندي في منطقة غير التي توقعا ان يتم فيها . فالذي حدث عام ١٩٢٥ في ذلك اليوم المشهود من ايلول ، ان الاسبان لعبوا اوراقهم بحذق ، فباغتوا بذلك الخطابي . فقائد طليعة الحملة كان الكولونيل فرانسيسكو فرانكو الذي انزل قواته في منطقة كباديلا تحت مظلة من القصف الجوي الشديد لساحل الحسيمة . وبينما كانت انظار الخطابي موجهة الى ذلك الساحل ، كانت الفرقة الاجنبية الاسبانية تغرس علمها فوق مرتفعات مونته نويفو . وقد كتب الخطابي في مذكراته بعد ذلك انه كان قد اسند مهمة الدفاع عن منطقة كباديلا الى قبيلة لم يكن يثق كثيرا بشيخها ، الا انه لم يخش خيانته لانه توقع الانزال في خليج الحسيمة . اما وقد حصل الانزال في كباديلا ، فقد اتضحت له خيانة هذا الرجل الذي لاريب ان الاسبان قد رشوه ، هندما شاهده ينسحب ورجاله بعد مقاومة اسمية للغزاة .

اسرع الخطابي لسد الثغرة بقوة من جنوده النظاميين . وبما ان فرانكو لم يستطع الا انزال وحدة فقط من فرقته وذلك بسبب البحر الهائج ، فقد حاصر الريفيون هذه الوحدة القابعة على موقع مونته نويفو طوال يومين . ومع ذلك ظل الخطابي على اعتقاده بان الانزال في كباديلا هو ليس العملية الرئيسية وانما

مناورة لتحويل انظاره عن قلب خليج الحسيمة . اما خطأه الثاني فكان تيقنه من امكانية جيشه تحطيم الانزال الاسباني على البر كما فعل في معارك عديدة في الماضي . ونسي الخطابي في هذه الحملة ضآلة حجم قواته وعدم كفايتها لحراسة الساحل كله . و الاهم من ذلك كله ، غربت عن بال الخطابي حقيقة بسيطة ، وهي ان الاسبان كانوا قد تعلموا من اخطائهم الماضية ، وان حملتهم الحالية كانت قد خططت بعناية كبيرة ، وبلا الارتجال الذي عرفت به عمليات الاسبان السابقة .

وفي ١٠ ايلول هدأ البحر ، وتمكن الاسبان من انزال المزيد من الجنود على ساحل كباديلا . وتحت مظلة جوية من الطائرات باصقة القنابل و الغازات السامة زحف الاسبان من موقعهم فوق مونته نويفو جنوبا باتجاه اجدير .

وفي هذه الاثناء وصل الصحفي الميركي الشهير فنسنت شيان لمقابلة الخطابي وكان قد قابله قبل ذلك عندما كان في اوج مجده ، اما الآن فقد وجده واقفا في باب الكهف الذي كان قد اعده بالقرب من بيته كملجأ ضد الغارات الجوية . وكان يحمل بيده بندقية ويصوب طلقاتها نحو الطائرات التي لم تكن الا على ارتفاع عشرات الامتار من الارض . ومع ان القنابل كانت تنفجر حوله ، الا انها لم تصبه . وتبادل شيان الحديث مع الخطابي وكان يقطع حديثهما دوي القنابل المتفجرة وطلقات المدافع الرشاشة .

وقد كتب شيان يصف المشهد فقال : وبينما كانت الطائرات تنقض امامنا تماما فوق سفح مرتفع ، تناول بندقية ووقف يضرب بعناية ، نصفه داخل الكهف، ونصفه خارجه . واكمل جملة قد بدأها ، وكانت على شروطه للصلح ، فتخللتها اصوات الانفجارات : " ..... الاستقلال (انفجار) التام (انفجار) للريف (انفجار) ....." .

و بالرغم من الشعور بالضيق الذي احس به دائما اثناء هذه الغارات ، فالمنظر هزّ مشاعري . فانه كان يقف امام القاصفات مباشرة ، اما لماذا لم تتمكن من اصابته بنيران رشاشتها فهذا ما لم اعلمه . ولكن منظر هذه البسالة في وجه الاخطار الكبيرة يمكن اعتباره يمثابة رمز للحرب كلها ، فها هو رجل واحد ، بل رجل اعرج يقف امام سرب كامل من الطائرات ويطلق عليها رصاص بندقيته .

وبعد انتهاء الغارة ، وضع الخطابي بندقيته جانبا وقدم الشاي لضيفه . وعندما طلب منه شيان السماح له بزيارة الجبهة تلك الليلة ، اجابه الخطابي مبتسما انه لا يستطيع ان يسمح للصحفي الوحيد الذي يقف بجانب قضيته ان يعرض نفسه للقتل . تلك الليلة كتب شيان في مفكرته :

ان شجاعته هي رائعة . ولم تتغير افكاره ، بل ان الاخطار الحالية قد عززتها ان فيه عظمة .... انه يمثل قومه في افضل صفاتهم .

سقطت اجدير في النهاية بعد مقاومة لا تنسى . ففي احدى المواقع استطاع خمسون ريفيا ان يقتلوا سبعمئة اسبانيا قبل ان يموتوا جميعا ، ولكن الموجة البشرية الاسبانية لم يكن بالامكان صدها .

وفي الجنوب استمر تقدم الفرنسيين مستعملين الدبابات هذه المرة . وظن الريفيون في البداية ان الدبابات مثل السيارات المدرعة العادية ، يمكن وقفها بواسطة المتاريس ، ثم الانقضاض على ظهرها وتفجيرها . ولكن الدبابات الفرنسية كانت تواصل تقدمها حتى تهدم المتاريس وتسحق المدافعين الريفيين القابعين خلف هذه المتاريس .

وعندما اوقفت امطار الشتاء تقدم الاسبان و الفرنسيين داخل بلاد الريف ، بدأت المفاوضات بين الاطراف المعنية . ووافق الخطابي عن التخلي عن مطالبته بالاستقلال التام مقابل الاستقلال الذاتي ، محاولا بذلك انقاذ ما يمكن انقاذه ، ولكن المفاوضات لم تثمر عن شيء ايجابي ، فالاسبان و الفرنسيون كانوا مصممين على تحطيم استقلال الريف و القضاء على الخطابي . وفي ٦ ايار ١٩٢٦ استأنفت الجيوش الثلاثة القتال ، وفي خلال ايام كانت الجيوش الفرنسية والاسبانية قد التقت عبر بلاد الريف في اكثر من نقطة .

واخيرا لم يبق لدى الخطابي الا خمسون محاربا ، فقادهم بنفسه في هجوم على موقع فرنسي . وفي هذا الاشتباك سقط نصف العدد الذي كان تحت قيادته ، وعند ذلك لجأ مع عائلته الى بيت احد اشراف الريف ، فنصحه هذا بان يسلم نفسه للفرنسيين ، لانه لو سلم نفسه للاسبان لاعدموه دون تردد . ويركب الخطابي جواده ، فيودع آخر من تبقى على قيد الحياة من جنوده ويتجه الى مقر القائد الفرنسي . وهناك يؤدي له الجنود الفرنسيون التحية العسكرية ، فيبلغ الجنرال بانه يسلم نفسه الى فرنسا ، معلنا بذلك نهاية ثورة الريف .

ولكن ليس كل رجال الريف يعترفون بالهزيمة ، فان احد اشهر قادة الخطابي احمد حرير ، يواصل شن حرب العصابات ضد العدو الى ان يسقط صريعا بعد ذلك باشهر ، ولم يكن قد بلغ الثلاثين بعد . وما ان ينتهي العام ، حتى تخمد المقاومة نهائيا في بلاد الريف و يكتب الكولونيل فرانكو في مفكرته بتاريخ ٢٧ تموز عام١٩٢٧ " لقد انتهت الحملة " . اما بالنسبة اليه شخصيا ، فانه كان على وشك ان يدخل التاريخ زعيما لاسبانيا منذ منتصف الثلاثينات .

طالبت اسبانيا حليفتها فرنسا بان تسلمها الخطابي لتعاقبه ، كما انه احرقت داره في اجدير حتى لا يصبح مزارا . ولكن فرنسا نفت الخطابي مع شقيقه وعائلتهما الى جزيرة رييونيون في المحيط الهندي ، فبقي هناك حتى عام ١٩٤٧ عندما طلب ان ينقل الى فرنسا حيث يستطيع اولاده ان يواصلوا دراستهم باعتبار ان الجزيرة تفتقر الى الامكانيات التعليمية . فوافقت فرنسا على التماسه وسافر الخطابي مع اهله على ظهر باخرة توقفت بعض الوقت في ميناء عدن ، فاحتفى الوطنيون العرب بالمجاهد الكبير ، وطيروا برقية الى صحفي فلسطيني في مضر هو محمد علي الطاهر كان طالما دافع عن قضية الريف ، يخبرونه بان السفينة التي تحمل الخطابي هي في طريقها لعبور قناة السويس . وفهم الطاهر التلميح الواضح واعد العدة لتهريب الخطابي من الباخرة التي تنقله الى منفى آخر.

وابلغ الطاهر الحكومة المصرية مضمون البرقية فوافقت على قبول الخطابي لاجئا سياسيا في القاهرة . وما ان توقفت الباخرة ، وكانت باخرة يونانية ، في ميناء بورسعيد ، حتى صعد على ظهرها حاكم الميناء وبرفقته الحبيب بورقيبة وعدد آخر من الوطنيين المفنيين من سائر اقطار المغرب العربي ، فرحبوا بالزعيم الريفي ودعوه مع اهله للنزول الى المدينة من اجل التفرج على معالمها ففعل ولم يعد الى الباخرة ، بل توجه الى القاهرة حيث افردت له الحكومة المصرية سكنا خاصا له و لأهله ، وهكذا انتهت حقبة المنفى و الاسر بعد ان كانت قد اخذت من عمره احدى و عشرين سنة .

واحتج الاسبان على تهاون الفرنسيين وسماحهم لعدوهم اللدود بالفرار ، ولكن فرنسا اعتبرت القضية منتهية . وقيل يومئذ ان فرنسا تقصدت السماح لامير الريف بالهرب حتى يصبح منافسا للسلطان محمد الخامس الذي كان آنذاك يطالب فرنسا بمنح بلاده الاستقلال التام . الا ان الخطابي اعلنها منذ البداية انه لن يكون العوبة بين اعداء المغرب . وقد كون في البداية جمعية سياسية اسماها رابطة الدفاع عن الشمال الافريقي ، الا ان مؤامرات الزعماء العرب آنذاك وتفضيلهم اسلوب المناورات الملتوية على الكفاح الثوري الصريح ، جعلت الخطابي ينفض يديه عن هذه الجماعة بعد ان تبين له عقم التعاون مع اناس لا يعرفون الا المساومة .

وفي ٦ شباط ١٩٦٣ توفي الخطابي اثر نوبة قلبية ، وكان في الحادية و الثمانين فودعه قادة مصر وافريقيا الى مثواه الاخير في جنازة رسمية و عسكرية . اما شقيقه محامد فقد عاد الى المغرب ليقضي بقية حياته هناك ، وتوفي في الرباط بعد زمن قصير من عودته ، وكان ذلك في ١٧ ايلول ١٩٦٧ ، فدفن في اجدير .

وهكذا اسدل الستار على حياتي بطلي الريف ، ولكن ثورة الريف التي كانت طليعة ثورات ما يسمى بالعالم الثالث ، هذه الثورة ستظل عبر القرون وهجا مشتعلا في ذاكرة العالم ، وفي قلب الانسان العربي ، مذكرة بالخمسة آلاف ريفي مسلح الذين وقفوا خمسة اعوام كاملة في وجه اكثر من نصف مليون جندي اوروبي واستشهدوا واسلحتهم بأيديهم .